ثأر

قصة بقلم صبحي شحروري

الشمس زال سلطانها عن الارض ، والظلام الهاجم بدأ يلف الحقول بأرديته الشديدة السواد ، وصراصير الليل بدأت مهمتها عنيدة مثابرة كعادتها ، وهو جالس وعينه على الافق البعيد رغم الظلام المتكاثف ونفسه موزعة يمتزج فيها الخوف بالقلق ، يحاول جاهدا ان يطرد من خياله افكاره القاتمة السوداء ، وان لا يسمح لتلك الذكرى المرعبة بالتسرب الى نفسه ، ولكن ما حوله كان يدفعه اليها دفعا ، فها هو ابوه قد تأخر وها هو يجلس نفس الجلسة المترقبة ينتظر ان تنشق عن ابيه شعاب السفح المقابل ، وسرعان ما وجد نفسه يعود سنوات قليلة الى الوراء ويرتد الى تلك الذكرى المؤلمة التي عاش يختزنها في ذاكرته .

كان يومها ينظر حبات البندورة ، ويقتل الوقت بمطاردة العصافير التي كانت تصر على مقاسمتهم الحبات حتى قبل ان تحمر، عندما افاق الى ان اباه قد تأخر وان الظلام قد داهمه ، فلم ير بدا من مغادرة المكان مضحيا بينه وبين نفسه على الاقل بشجاعته التي طالما حدث عنها اباه ، فكان ان تعبط الجبل يقطع الطريق في سرعة مجنونة وكله رغبة في ان يصل الاسفلت قبل اشتداد الظلام، فبعد الاسفلت اطراف القرية واطراف القرية امان . وحين وصل الاسفلت سمح لنفسه بالتوقف لحظة يجمع فيها انفاسه ، ويعيد الى قسمات وجهه شيئا من الهدوء يستر به فضيحة خوفه . وفجأة تحسس في اعماق خاطره سؤالا : ترى لماذا يخاف الليل ؟ في النهار كان يؤكد لنفسه بحزم واصرار انه يستطيع قطع هذه الطريق في سواد الليل دون ان يخاف. ما الذي فيها يخيف ؟ هذه الضاربة في الفضاء زيتونة ، وتلك المتكبرة المتحدية مجرد صخرة ، وهذه الكرة الدائرة على نفسها هي غاشة دار فليفل التي طالما نزع اوراقها واغصانها ليطعم بها عنزتهم السوداء ، وهذه الاشجار المتقاربة المتآلفة هي « تينات حجاز » التي طالما نعم بظلها الظليل . كل هذا لم يتغير ، ولكن الامر قبل لحظات كان على العكس . فتحت الزيتونة سرب من الضباع لا ينتهي والغاشة غول هائل ينقض على كل عابر سبيل ، وبين التينات كل الارواح الشريرة المؤذية التي طالما حدثته عنها جدته الحاجة انيسه ، ومضى في طريقه متمهلا تتقاذفه الهواجس والافكار ، فما لبث ان انتهى الى وضع وجد نفسه يقف فيه موقف المقارنة مع ابيه .

أبوه ؟!! أبوه يقضي الليل كله وسط هذا الظلام ولا يخاف . ويقطع هذه الطريق في الليالي التي لا ترى فيها العين الاصبع دون ان تقف له شعرة .

وبدا انه سيستمر في هذه المقارنة التي لا تزيده الا حنقا على نفسه لولا ان تذكر البارودة وحديث والده عنها . السلاح في الليل صاحب ، بل هو خير صاحب ، صاحب يعفي مرافقه من الثرثرة والكلام ، واذا نطق كان كلامه القول الفصل . وسره ان تجسدت في خياله البارودة ماسورة حديدية مخروقة لها قاعدة خشبية ملساء يصل بينهما سير من الجلد ، يجبر العنق ان تميل نحو الكتف ، رآها بعينه دون ان تلمسها يده . اهم ما يعرفه عنها انها تقتل ولكن اقتناءها خطير قد يجر صاحبها الى الموت . وتذكر اول مرة رآها فيها ، كانت يوم ان اسرف قط الجيران في السطو على الارانب ، استلها ابوه من حزمة حطب عتيقة فوق بوابة الدار الهرمة وصوبها الى القط الذي كان يتبختر في مشيته فوق جدار الفناء ، وظل القط يومها يدور ودمه ينزف ، وينزف دمه ليعاود الدوران من جديد حتى انكفأ على الارض جثة هامدة ، وقد تلاشت من ذهنه يومها خرافة ـ البسباس بسبع رواح ـ وكان الذي حيره ان العيون، كل العيون في بيتهم وفي بيوت اعمامه كانت مشدودة الى الاب والى البارودة في يده ، وحتى بعد ان نفق القط فقد ظل حبل من القلق والخوف يشد هذه العيون الى الاب حتى اختفى الرجل في حاكورة الدار يبحث لسلاحه عن مخبأ امين .

اذن فالعيون لم تكن تخاف القط وانما كانت تخاف شيئا رهيبا مجهولا لا بد ان له علاقة قوية بخروج البارودة من مخبئها . وفجأة وجد نفسه امام مئات من الاسئلة ترسم بمجموعها وضعا عويصا لا يفهم منه سوى ان يحقد عليه كباقي الناس . الوجوه الحمراء المنتفخة التي تهبط القرية بعد يوم او يومين من اطلاق رصاصة فيها ، والكلاب السوداء الفخمة تسعى بين يدي الخيول ولا تتسلق الا اكتاف رجل بعينه دون بقية الناس ، ورجال القرية يحشرون زجرا في رقعة البيدر الضيقة ، واطفال القرية ونساؤها يتكدسون في مسجد القرية ، وهمهمة خافتة عنيدة تسري بين الناس ، وكلمة جاسوس تتبادلها الالسن في أسف وحقد مريرين .

وانقذه من كل هذه الاسئلة ان خياله سرح مع الكلاب . لقد تمنى على والده ان يسمح له باقتناء كلب يعاونه على الحراسة ويزيد من شجاعته ، ويكون له كما هي البارودة لابيه . ولكن الاب اقنعه بعدم امكانية ذلك .

الكلب في الصيف ذو نفع عظيم ، يقوم بدور في الحراسة كبير ، ولكن بعد الصيف شتاء ، والكلب يرفع رجله ويبول ، يبول حيث يشاء وامه لن تسمح بتلويث الساحة التي تملأ البئر بماء المطر ، انها ستكسب الماء مدرارا سبع مرات على كل شيء يلحسه الكلب دون ان تطمئن الى ان الطهارة قد عادت اليه .

كانت اقدامه وخواطره قد اقتربت به من القرية حين عاد الى ذهنه تساؤله عن تأخر ابيه ، فدخلها والجو ظلام ، وتوجه دون ابطاء الى منزلهم .

في مدخل الزقاق كان صبية كثيرون يتجمهرون ، تعلقت عيونهم به حين رأوه ، كأنما كانت تدفعه الى الداخل ، ومن سطوح المنازل المجاورة كانت تطل أشباح كثيرة لنسوة يتبادلن الهمس ، ومع نسمة الريح الغربية صافح سمعه صهيل ووقع حوافر الهمس ، ومع نسمة الريح وفجأة انهالت عليه كل الافكار والهواجس التي اجترها في طريقه وأحس بها تعود اليه واقعا حيا وقدرا محتوما ، في رأسه دارت دوامة أخذت تنفخ رأسه وتبعث طنينا هائلا يتفجر لهبا في اذنيه ، وتقدم ما بقي عليه من خطوات .

تحت شباك غرفتهم الصيفي المتجه نحو الغرب كان يقعي كلب ، كلب أسود ضخم ، بين يديه رغيف بأكمله دهن باللبن يأكله بهدوء واطمئنان مثيرين وكأنه لا يعلم شيئا عن الام وحرصها على طهارة ساحة البئر ، ولا

يحفل بجموع الصبية الذين ما رأوا كلبا الا واشبعوه ضربا ، وتطلع فرآه كومة غضة سوداء في ارض احلامه ومعتقداته الناصعة البياض ، ومعولا ضخما يهدم بقسوة جدار مثله التي وعاها عن امه وابيه .

وفي الباب تجمهر خلق كثير بينهم كل اقاربه ، ومن بين اصوات الجميع ارتفع صوت قريبه «ابو رشدي» المختار عاليا مدويا كعادته ، يحلف ويكرر القسم بأنه لا يعرف عن صاحب البيت الا انه مسكين لم يفكر طوال حياته باقتناء سلاح ، بينما انشغل قسم كبير من اقاربه في نقل اطباق عديدة من الطعام الى الخارج ، كان يبدو انها حملت من الطعام الكثير ، ربما اكثر مما شهدته الدار المتواضعة خلال تاريخها الطويل ، واندس بين الارجل يحاول معرفة شيء مما يدور في الداخل ، واستطاع بعد لأي ان يتبين طرفا من الوجوه الحمراء المنتفخة وهي تجدس على الفراش والاحذية الضخمة السوداء اللامعة ما زالت في أرجلها ، تميل على اناس من بني جلدته الى جوارها ، تسر اليهم بتمتمات مبهمة طالما سمع عنها دون ان يحفظ منها سوى كلمة (فكن عرب) . ومرت لحظة رهيبة من الصمت توتر خلالها الجو ، وما لبث ان اندفع صوت والده مسنونا حادا كمواء قط محاصر يقول :

« خلوني قبل ما اروح اشوف الصبي » وعرف انه المقصود بالصبي فاندفع يريد ان يصل الى حبيبه صاحب الصوت ، وشق ابوه الصفوف وكأنه معه على موعد ، ومرت لحظة انتقل رأسه خلالها الى حجر ابيه ، وسرت في خياشيمه رائحة عزيزة عليه قريبة الى قلبه ، رائحة عرق الفلاح الممزوج بتراب الارض الخيرة . وفي رأسه وبين ثنايا اعماقه كانت تسري موجة لا تلبث ان تتحول غصة تطعن الحلق وتورثه الما حادا في الصدغين ودموعا تتحجر في المقلتين . ورفع رأسه الى الوجه الحبيب الذي طالما الفه كأنما يسأله الجواب فجاءه الجواب قويا حاسما ، انهم لن ينالوا شيئا ، وان البارودة ستظل تنعم في مخبئها رغم سياط الجلد والماء المالح .

وأفاق الى نفسه والى وضعه الجديد المشابه لتلك الذكرى البغيضة التي عاش يجترها مئات المرات . ها هو اليوم وبعد شهور هي في حساب الزمن سنوات قليلة قليلة يجلس نفس الجلسة السابقة وها هو والده قد تأخر ، وها هو الكون من حوله ظلام ، وما زال الطريق موحشا مخيفا كما قطعه اول مرة ، ولكن يشعر رغم ذلك ان شيئا ما قد حدث ، غيَّر وجوه الاشياء والحوادث ، وجعل لها مذاقا خاصا حلوا على الرغم مما فيه من حرارة .

حوادث اطلاق النار تكررت ، والخيول هبطت القرية مئات المرات ، والوجوه الحمراء اخذت تبدو مكدودة مرهقة رغم ستار كبريائها ، الزائف وبرودها المقيت ، وحذر الناس قد قل ، والهمهمة الخافتة العنيدة تطورت استعداداضخما وعملا دائبا فيالليلوالنهار ، واهل قريته اخذوا يتحدثون بفخر واعتزاز عن اناس منهم ومن القرى المجاورة لا يهبطون القرى الا لماما وانما مساكنهم الحقول والاودية وبطون المغاور ، والناس حين يستقبلونهم، بالاهازيج والزغاريد وانباء كثيرةعنمصرع جاسوس هنا واخر هناك .

وتمطى في جلستهوتثاءب ، ولم ير بدا من مغادرة مكانهالىالقرية.انه لن تخيفه الضباع تحت الزيتونة ولا الارواح الشريرة بين شجيراتالتين هذه المرة ، ففي اعماقه احساس قوي بانه على موعد مع حدثهام هناك في بيتهم حيث لا بد تأخر والده .

واجتاز عتبة الدار هذه المرة ايضا ولكن بشعور يطغى فيه الامل على كل شيء عداه ، كانت الدار مضاءة كلها بالمشاعل حتى لكأنها مع الظلام في حرب ، صافحت سمعه مع النسمة الغربية الحنونة جلبة ووقع حوافر ، ودار ببصرهالملهوف الى حيث كان يقعى الكلب الاسود ، الذي ظل طوال تلك المدة يطمس احلامه ولكنه وجد بدلا منه وجوها تفتح لها قلبه ، فهو يعرفها جيدا منذ خلق دون ان يراها ، هذا سوري بلكنته الشامية الحبيبة ، وذاك عراقي قطع مئات الاميال وعشرات المغاور ، وثالثقطع نهر الاردن على ظهر جمل والكل منهمك في مسح سلاحه واعداده . احس وقتها بذكراه المشؤومة تبارح خياله واحس بالوجوه السمراء الحبيبة تطفى على الوجوه الحمراء العفنة حتى لكأنها تسحقها، ودار ببصره في الفناء الواسع يبحث عن ابيه ، فكان ان رآهيتجمع كله في نظرة هادئة مطمئنة تقول :

ـ لا تخف يا بني ، انهم ثوار .

صبحي ذيب شحروري

عنبتا ـ الاردن

روائع المسرح العالمي

سلسلة كتب تنتظم اروع المسرحيات العالمية وأشهرها وتتناول من القضايا ما يهم كل مثقف عربي

(يشرف على ترجمتها الدكتور سهيل ادريس)

صدر منها

١	الايدي القذرة (نفدت)	تأليف	جان بول سارتر
٢	بستان الكرز	«	انطوان تشيخوف
٣	الحقيقة ماتت	«	عمانوئيل روبلس
٤	كانديدا	«	برناردشو
٥	الافواه اللامجدية	«	سيمون دوبوفوار
٦	البلور المحرق	«	تشارلز مورغان
٧	ثمن الحرية	«	عمانوئيل روبلس
٨	العادلون	«	البير كامو
٩	موتى بلا قبور	«	جان بول سارتر
	قريبا		
١٠	رؤوس الآخرين	«	مارسيل ايميه

تطلب هذه السلسلة من

دار العلم للملايين

ودار الآداب ـ بيروت